الحديقة

قصة بقلم اديب نحوي

لما باشرت الباحثة الاجتماعية الانسة سلوى دهان ، الموظفة في مديرية العمل ، أول مهمة لها ، بعد أن عادت من البعثة ، بالطواف على الحارات القديمة عند ابواب حلب ،لتدرس احوال العائلات هناك ، أدهشها أمر غريب جدا ، لا يجوز السكوت عليه : ان مئات من الاطفال الساكنين في بيوت تلك الحارات ، لا يتمتعون بصحة جيدة على الاطلاق . فكيف يحصل ذلك ؟! وهؤلاء الاطفال هم عدة الوطن في المستقبل ، كيف ؟!لقد استغربت الامر كثيرا . وصارت تسجل عندها ، في الدفتر ، ملاحظات كثيرة ومهمة ، وبعبارات قاسية : كالاهمال والتقصير ، اهمال دوائر الصحة ومعها البلدية ، توفر الشروط اللازمة في المساكن ، حتى تكون صحية ، وتقصير الحكومة في مساعدة هؤلاء المواطنين ، حتى يتمكنوا من تربية اولادهم تربية سليمة ، وغير ذلك من الكلمات الشديدة .

فلما وصلت ، ذات يوم ، الى حارة التلة السوداء ، خارج باب قنسرين ، واستقبلتها رائحة كريهة ، هي ما ينتشر من الكهاريز المفتوحة في منتصف الازقة ، ودارت على البيوت هناك ، بصحبة مختار الحارة، فوجدت أنها لا تشبه بيوت الآدميين على الاطلاق ، بل تشبه الاصطبلات حيث يمكن أن تعيش البهائم فقط ، وأن ليس بين مئات الاطفال في تلك الحارة ، طفل واحد سمين ، خدوده حمراء ، انزعجت كثيرا . ونظرت في الازقة ، هكذا ، نظرة حزينة ، وهي تخرج من بيت ، لتدخل الى بيت آخر ، فشاهدت ان الاطفال المساكين ـ يا حرام ـ يلعبون ، وأرجلهم الحافية ، تغوص في اقذار الكهاريز ، ويتراشقون بكمشات من النجس، ويمسكون ، بعد ذلك ، ـ يا لطيف ـ أي شيء بأيديهم ، ليضعوه في افواههم .

فانها غضبت ، كثيرا ، كثيرا ، عند ذلك .

وفكرت :

ألا يوجد في هذه الحارات ، على الاقل ، على الاقل ، حديقة ؟! ليشم الاطفال فيها الهواء النقي ، ويلعبوا هناك ، مع بعضهم البعض ، بدلا من ان يلعبوا ، في اقذار الكهاريز ، ويتراشقوا بالنجس ؟! فاذا كان الناس ـ لفقرهم ـ لا يستطيعون السكن في بيوت صحية ، أفلا تستطيع الحكومة ، وعندها مئات الملايين ، أن تنشيء لاطفالهم ، في كل عشرين حارة من هذه الحارات ، حديقة واحدة ؟!

ثم اخذت الانسة سلوى ، تحكي مع نفسها ـ بغضب ـ وهي تمشي بحذر ، في ازقة الحارة ، بلزق الحيطان ، خشية ان تنزلق قدمها ، فتغوص فورا ، حتى ركبتيها ، في احد الكهاريز : ألا يوجد في هذه الحارة حديقة ؟!

ومختار الحارة الهرم ، تعجب ايضا ، لكن ، من سؤالها ،

فسألها بدوره ، وهو يمشي جنبها :

ـ يا خانم ، أي حديقة ؟

فوقفت ، والتفتت اليه ، وفتحت عينيها في وجهه بدهشة . فجمد المختار في مكانه ، وخاف ، أن يكون سؤاله ، في غير محله الاصولي ، بينما رئيس المخفر أوصاه ان يدير باله على البنت ، لانها موظفة مهمة من دائرة العمل والشؤون الاجتماعية ، ومعها شهادة عالية ، حصلت عليها من بلاد الاجانب ، وتدرس احوال العائلات ، وتكتب كل ما يجري معها في الدفتر ، لترفعه الى مدير الدائرة . يا ساتر .

لكن البنت سألته : ـ يا مختار .

قال لها بأدب ، وهو يغض من نظره :

ـ نعم يا خانم . أمرك ؟

فأفهمته : لانه اذا لم تكن ، عندكم ، في هذه الحارة ، حديقة ، ليشم فيها الاطفال ، الهواء النقي ، فانهم يمرضون ، وتصير وجوههم صفراء، بلون الليمون ، هل تفهم يا مختار ؟

فنظر اليها المختار . وسكت .

قالت له ، مرة اخرى : ـ الا تفهم ؟ هل انني احكي بالتركي ؟

قال : ـ عدم المؤاخذة يا خانم . انا مختار هذه المحلة ، وأفهم في معاملات الولادة والزواج والوفاة ، هذا شغلي ، ولا أفهم غير ذلك .

فعند ذلك ، غضبت البنت ، اكثر واكثر . واخبرته :

ان الحكومة التي عينته مختارا لهذه الحارة ، هي حكومة مجرمة . وأنها تعين أمثاله ، ليسكتوا عنها .

أف أف أف .

هكذا حكت البنت عن الحكومة ، دفعة واحدة : وأن عليه ، اذا كان رجلا شريفا ، أن يطالب للشعب بحقه .

ان مختار الحارة ، القصير ، النحيل ، الهرم ، خاف من هذا الكلام كثيرا . وفكر لنفسه : « الله يكفينا شر هذا اليوم » .ولم ذيل قنبازه بيديه ، وفكر أن ينهزم . فكر : « آنا ، مالي وهذه المشاكل ؟! وهذه بنت ـ الله يسترنا ـ تحكي مثل اولاد الحارة المشاغبين ، الذين يسبون الحكومة ، في الليل والنهار . كان مسبتها عندهم ، تسابيح الصلاة . اقول لهم : « صلوا على النبي احسن » فيسبون الحكومة ويقولون : « أنت يا مختار ، ذنب للبيكوات . وزمانهم ولى يا مختار » ويضحكون أقول لهم : « اسمعوا مني يا اولاد ، واقعدوا عاقلين » فيقولون : «احسن لك أن تسكت . ولولا أن ابنك محمد علي ، هو رئيسنا في المعمل،وأول ثوروي ، كنا قلعناك من هذه الحارة ، من زمان . يا حسرتي ؟ : رئيسكم في المعمل ، أم في الحبس ؟! الله يلعنكم . لانه : يومين في الشغل ، وشهرين في الحبس ، من كثرة ما يشاغب ضد الحكومة » .

هكذا ، حكى المختار مع نفسه ، بينما سلوى خانم ، تحكي له عن حق الشعب . وفكر المختار كذلك ، بآخر مرة : أخذوا فيها ، ابنه محمد علي الى الحبس ، لينام ستة شهور ، وأنه لم يخرج بعد ، من هناك ، حتى اليوم ، لما طلع ، هو والعمال في المظاهرة ، من معمل الحاج وهبي الحريري في عين التل ، وقف العكروت ، على باب المعمل ، كأنه عنتر ابن شداد ، وبرم شواربه ، وقال : شيلوني يا شباب . الله يلعن نفسك: من يقدر أن يشيلك ؟! طويل وتخين وأهبل . ووزنك اثقل من وزن البغل! ومكبر الشوارب على قلة فائدة ، وما في عقل . قال ، شالوه على اكتافهم ، اربعة . كل واحد بطول الحورة ، حتى قدروا ان يشيلوه . وصار يصيح ، من قحف رأسه ، مثل الثور الفلتان : « تسقط الحكومة الاقطاعية يا ..» والمجانين وراءه ، الف واحد واكثر ، يصيحون : «تسقط تسقط تسقط » .

وبعدها ، علقت بينهم وبين الشرطة . حكوا لي ، العكاريت ، لما رجعوا ، قالوا : ابنك رفع راس حارتنا . هجم على الشرطة قدامنا ، وعلقت . طيق طاق طاق طيق . تسقط الاقطاعية . تعيش العمالية . ايه يا عيني . وبعد ذلك ، كمشوه ، الشرطة . والحكومة ما سقطت .

وأخذوه للحبس ، بعد أن قتلوه ، قتلة ، بنت كلب . وهو الان ينام في الحبس ستة أشهر . طيب . ماذا استفدنا ؟ وهذه البنت ، تحضر اليوم الى حارتنا ، وتحكي كذلك ، عن الحكومة المجرمة . لا يا ستي . أنا مالي علاقة ، وحق سيدنا زكريا . الحكومة على راسي وعيني . الله يطول لنا عمر الحكومة .

لكن البنت ، ظلت واقفة قدامه ، وتحكي عن الحكومة : انها مجرمة . لانها تترك الاطفال يمرضون ، وتصير وجوههم صفراء . استعنت عليك، بالله ، يا بنت . قال ، وتساله : ـ ضربة تشمط رقبتها ـ يا مختار ،قل لي : ألا توجد عندكم في الحارات القريبة من هذه الحارة ، حديقة ؟

لك يا بنت ، اي حديقة !! وما دخلي ، انا ، بذلك ؟! يتزوج الواحد ازوجه . نعمل المعاملة ، ونذهب الى المحكمة الشرعية ، ومعنا العروس، يعني : نأخذ اختها الكبيرة ، بدلا منها ، ونقول للقاضي : هذه هي العروس . لانهم لا يوافقون ـ في المحكمة الشرعية ـ على زواج الصغيرة تختم على ذلك يا مختار ؟ نعم ، أختم . وستين أختم . بشرع الله وسنة رسوله . واذا انا ما ختمت ، كيف ارزق من اهلها بعشر ورقات سوري . اختم يا سيدي ، اختم . فان ولد لهم ولد . أختم على ورقة الولادة ، بورقتين سوري ، اذا انها بنت ، اما للصبي ، فلا اقبل بأقل من مخمسة . لا يمكن أن اقبل . واذا الواحد مات : اختم الورقة الصفراء ، انه مات . ولا اقبض منهم ولا متليك ، ان كان اهل الميت جماعة دراويش . هكذا ، نعم ، لان المركب الذي ، ما فيه شيء للهيفرق هذا هو شغلي يا بنت . انزلي عن كتفي ، الله يسترك . فما علاقتي ، انا ، ان كانت حكومتك مجرمة ، اوغير مجرمة !

ورفع المختار رأسه ، ونظر الى البنت ، فوجد أنها اخرجت الدفتر ، ـ هكذا في الزقاق ـ لطفك يا رب ، ماذا تكتب . وبعدها ، يقولون ، في دائرة الاجتماعية ، ان مختار التلة السوداء ، علمها ان تكتب ، ضد الحكومة . لا يا بنتي . ايدي في زنارك . دخيل عرضك . لا تكتبي .

ووجد المختار ، أنه اخذ يحكي ، غصبا عنه ، بصوت مسموع هذه المرة .

بلع ريقه . بعد ان شعر ان حلقه قد نشف . واصابعه تلعب بشعر ذقنه الابيض . وصار يغمغم :

ـ يا بنتي ، لا تكتبي اي شيء . الله يسترك ، ويرزقك بعريس ابن حلال .

وفكر : ـ اذا كانت غير متزوجة ، فانها هكذا ، تنبسط .

فنظرت اليه البنت ، وقد احمر وجهها كثيرا ، وخجلت . لا بد انها انبسطت . لكن ، تبدلت نظرتها بعد ذلك ، وصارت تزور المختار ، بغضب . وضربت بالقلم على الدفتر . يا ساتر ، هذه ، والله العظيم ، بنت ثوروية . عمالية . مثل ابني محمد علي . لازم انها كذلك . وابني حكى مرة : أن عندهم في الثوروية ، بنات . وتقاتل عند اللزوم ، مثل الرجال . فلا بد ، أن هذه البنت ، هي الرئيسة . اي والله العظيم ، لا بد .

ثم قالت له بعصبية :

ـ اسمع يا مختار . لا تهمني انت . بل يهمني الاطفال . انا درست مشكلة الاطفال ، ست سنين في الجامعة . وهذا اختصاصي . وواجبي ان اكتب للحكومة ، من اجل أن تنشيء لهم حديقة ، في هذه الحارة .

لكن المختار ، وجد نفسه ، وهو يحكي من خوفه :

يا خانم . نحن .. نحن .. يعني .. نحن .. عندنا حديقة . يوجد عندنا ، كل شيء . الله يخليك يا بنتي ، لا تكتبي في الدفتر اي شيء. بعدها ، يحضر رئيس المخفر ، ويجرني على وجهي ،ويعمل لي قتلة بنت حرام . الله يوفقك . اكتبي .. أنه ، توجد عندنا حديقة ، وخلصيني الله يخلصك من نار جهنم .

فتعجبت الانسة سلوى ، من هذا الكلام ، كثيرا .

شاهدها المختار ، وهي تطوي الدفتر ، وتعيد القلم الى جيبها ، وتسأله :

ـ أين توجد عندكم ، الحديقة ؟!

وكان عدد من اهل الحارة ، قد تجمع امام الدكاكين ، ويضحكون . ويؤشرون بايديهم ، الى البنت والمختار ، ويحكون من بعيد ، أن شوفوا يا ناس ، مختار حارتنا ، صالح ، يمشي مع هذه البنت التي لا تغطي وجهها او شعرها بالملحفة !! ـ الله يسترنا ـ وتمشي في الزقاق ، كاشفة وجهها وشعرها بلا حياء ، كانها قاعدة في بيت اهلها ، مع النسوان ولا تخجل .

وولد صغير ، على باب احد البيوت . ظل ينادي امه : « يامو .. يامو، اركضي وتفرجي » حتى فتحت له الباب .

فصاح :

ـ يامو ، شوفي . واحدة تمشي في الزقاق ، بلا غطا .

فنهرته امه : ـ يا شيطان ! وجرته من يده ، وادخلته الى البيت. لكن مدت رأسها ، قبل ان تغلق الباب ، ونظرت ، فشاهدت ، تلك البنت . يا حفيظ . سترك يا رب . اللهم ، تحفظ علينا العقل والدين. واغلقت الباب . وركضت ، لتحكي لحماتها ، ما شاهدته اليوم ، في زقاق حارتهم ، من عجائب غرائب .

وصالح سطل ، فكر ، لما رأى ذلك : يعني ، والله العظيم ، لو انني ، مت البارحة ، لما كان خطر لي ، انه ، تاتي هذا اليوم ، الى حارتنا ، بنت ، وهي موظفة عند الحكومة ، كانه لا يوجد عند الحكومة ، رجال من الافندية . بنت صبية ، وما هي صغيرة . بشعة . نعم ، بشعة . سمراء زرقاء . لكن ، طويلة . وصدرها يموج ، كانه ، شجرة رمان ، يا ساتر . ولها ، عيون ، لو كانت لبنت حلوة ، غيرها ـ يا لطيف ـ كانت ذبحت بها ، مئة شاب ، من رقابهم ، وهي تضحك . نعم ، لو انني كنت مت البارحة ، لما خطر لي ، ان بنتا في عز صباها ، تاتي ، اليوم ، الى حارتنا ، وهي لا تتغطى بأي شيء ـ ربي كما خلقتني ـ ، ويقول لي رئيس المخفر : امش معها ، يا مختار ، من بيت الى بيت ، لتدرس . تدرس !! ماذا تدرس ؟ ان شاء الله ، يدرسونها في البيدر . وانا امشي معها ، يا عيني ! وعند صلاة العشاء ، هذه الليلة ، يمسكني العجائز من اصحابي ، من اهل حارتنا . يمسكونني من ذقني ، ويشدونها. ويمزحون معي : ـ يا صالح سطل . كيف تمشي مع بنت سافرة ، في الزقاق ، ولا تستحي !! يا صالح سطل ، على الكبرة ، جبة حمرا ؟!

ويشكونني ، لشيخنا عبد القادر حسنات ، امام المسجد ويقولون له : ـ هل سمعت يا شيخنا ..! فان مختار حارتنا ، ظل طول هذا اليوم، يمشي مع البنت السافرة . يدور معها ، من مطرح الى مطرح ، في الحارة ، بلحيته البيضاء ، وهي ، لا تتغطى . فما قولك ، في هذا الامر ، يا شيخنا ؟ اليس انه حرام ؟ فماذا اقول لشيخنا ..؟ عندما ينظر الي ، وهو يبتسم . ووجهه ، كله ، نور وتقوى . ويعاتبني بعينيه : « كيف تفعل ذلك ، يا صالح سطل ؟ »

اقول له : « يا شيخي . هذه البنت حضرت من طرف الحكومة . انا المختار ، والشرطة امروني ، ان امشي معها . ولا يطلع بيدي شيء يا شيخي . والله العظيم ، ما خرجت معها الا غصبا عني . والا يعمل لي ، رئيس المخفر ، مشكلة ، ولا اخلص منها بالهين » .

وكانت الانسة سلوى ، قد عادت ، لتقطع عليه ، الان ، مرة اخرى ، سلسلة افكاره ، بالسؤال :

ـ يا مختار . تقول ، انه توجد ، عندكم حديقة . لكن اين ؟

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من هذه البنت العنيدة . مرة اخرى ، الى الحديقة !! ما خلصنا ؟

وارتبك صالح سطل كثيرا : طيب ، ماذا اقول للبنت ؟

فسألته من ناحيتها ، هذه المرة ، عن التفاصيل :

ـ يعني ، حديقة مثل العادة ..!! فيها حشيش وشجر وزهور ؟

قال لها ، مستعجلا ، وهو يمشي قدامها :

ـ نعم يا خانم . فيها حشيش وشجر وزهور . وكل شيء .

وفكر : حتى تنزل عن كتفي . العمى . عمره ، الواحد ما يحكي كلمة قدام النسوان . صحيح ، المرأة بنصف عقل . ولا تعرف سوى اللت

والعجن بالكلام . العمى . علقت وحكيت كلمتين مع هذه البنت ، ومـا عدت اخلص . الله يسترك يا بنت . احسن لو كان ابوك زوجك من ولد ابن حلال ، وقعدت في البيت ، مع دزينة اولاد ، وانشغلت بهم عـن الحديقة . حريقة تحرق نفسك ونفس الحديقة .

وقال صالح سطل ، وهو يمشي امامها ، لعل وعسى انهـا تنسى الحديث عن تلك ـ المصيبة ـ الحديقة :

ـ تفضلي يا خانم . حتى نزور بيت طه نجار ، وهـو سادس بيت عندك في القائمة ، التي رتبناها اليوم ، في المخفر . ويبقى عندنا ، بعد ذلك ، اربع زيارات .

وتنهد ، وقال في سره : « واخلص من هذه الورطة معك » .

فمشت الانسة سلوى وراءه .

وكانت شمس شتوية ، صفراء اللون ، تطل متردّدة ، مـن بين غيوم رصاصية . حتى الشمس ، في هذه الحارات ، كئيبة ! فلمـا التقت الغيوم ببعضها البعض ، فوق الحارة ، وغابت الشمس في لحظة واحدة ، رفعت سلوى عينيها الى السماء ، وهي تفكر بحزن : « كان لهذا الحي ، سقفا . كان له ، سقفا سماويا لا يمكـن ان تنفذ منـه الشمس ، او البهجة . فاذا دخل الواحد اليه ، تلفه التعاسة ، كانها كفـن ابيض ، لا ينفتح لصاحبه ، سوى ، باب القبر » .

وكان المختار قد دق على باب بيت طه نجار . على كتف الطريق ، وصاح : ـ ابو صطيف .

فاجابت ام طه ، من داخل الدار : « من يريده ؟ »

قال صالح سطل :

ـ انا المختار يا ام طه ، ومعي موظفة الاجتماعية . يعني : الخانم ، من دائرة الاجتماعية ، لتعمل لكم ، زيارة اهلية .

وغمز بعينه للانسة سلوى ، ووشوشها :

ـ لان الناس عندنا ، يخافون من زيارات الافندية ، تبع الحكومة ، فانا هكذا ، اطمئنهم .

واجابته ام طه . فاتى صوتها ، مرتجفا ، وتعيسا ، وخافتا ، كانـه صادر من اعماق الجب ، لا من وراء الباب :

ـ دقيقة واحدة ، يا مختار ، حتى نتغطى . فعاتبها صالح سطل ، ولـم يسكت :

يـا عيني على ذوقكم . افتحوا الباب حتى تدخل الخانم ، ولا تنتظر في الطريق . لانها ، ولو انها موظفة عند الحكومة . لكنها بنت . يعني : حرمة . وتكتب للحكومة في الدفتر ـ خزيت عنها العين ـ عـن احوال الخلق المساكين ، مثل حكايتنا .

وغمز لسلوى بعينه ، بما معناه : ـ اليس كذلك ؟ فابتسمت لـه سلوى : ـ نعم . وهو كذلك .

وانبسط صالح سطل ، قليلا . لعلها هكذا ، تنسى حكاية الحديقة .

دخلت الانسة سلوى ، الى بيت طـه نجار ، ووراءها المختار . ههنا ام طه . وجهها اصفر . وعيناها حزينتان . هرمة . تكاد لا تقدر ان تقف على قدميها . ومطوية طاقين . كانها غرض عتيق لم يعد لـه أي نفع كـان .

سالها صالح سطل ، عن ابنها طه : « هل أنه ان شاء الله ، وجـد اليوم شغلا ، وخرج ليشتغل به ؟ »

فقالت له : لا . انه خرج ليبيع قنبازه الجوخ ويشتري بحقـه ، الاغراض للولد .

فاجابها ، وقد زعل :

ـ انا قلت لكم ، لا تبيعوا أي غرض . ونحن نجمع لكـم كل يوم ، حق الخبز ، من الاجاويد .

قالت له ، ام طه :

ـ والله ، لا اترك الولد يخرج من بيتي ، دون ان نجهزه . لانـه ، ما هو صغير ـ حتى لا نجهزه حسب الاصول .

قال لها ـ وسلوى لا تفهم من الامر شيئا :

ـ حرام يا ام طه . ان تسلفوا . وهذه ارادة الله . فهل انتم اكرم من الله ، حتى تسلفوا ، قبل ان تتم مشيئته .

قالت ، وفتحت له ، باب الغرفة :

ـ يغفر الله لنا . ونحن عباده .

وكان الولد ، متمددا في الفراش . وفوقه لحاف ، جوانبه مزفتـة من كثرة ما هو وسخ . وامه : امراة في الثلاثين . تـرد بيد ، فوقانية ملحفتها السوداء ، على وجهها ، وبيد اخرى ، تمسح العرق عن وجـه الولد ، بالمحرمة .

قالت ام طه : ـ تفضلي ، واستريحي .

فقعدت سلوى على كرسي القش الواطي . وقعـد صالح سطل ، على الارض .

قالت ام طه : ـ صاروا سبعـة اولاد . اكبرهم عمـره عشرة . ويلعبون في الزقاق . وابوهم ، لا يحصل على الشغل في الورشة ، ايام الشتاء . لان الناس ، لا يبنون العمارات تحت المطر . وامهم . يصيرون ثمانية . وانا جدتهم ، زيادة في العدد . الله يقرف عمري ، ويخلصهـم مني ، كرامة للنبي محمد . لان عمري صار ستين سنة ، وكفاية ، ماعشت من هذه السنين السود . لعل وعسى ، اخفف الحمل عن ابني طه .

واشارت الى الولد ، في الفراش :

ـ وهذا حسن . عمره ، خمس سنين . الولد الوسطاني وهـو مريض من شهرين . ولا يمشي على رجليه . وانا احبه . تعلقت بـه . لانه من صغره ، مشلول من رجله اليمنى . ولا يمشي حين يقوم ، الا على رجل واحدة . واليوم لا يمشي ، ولا على رجل . وانه مسافر .

واومأ الولد بيده ، وتحرك . فمالت عليه أمه . ورفعت رأسه بين يديها . وقعدت ام طه ، جنبها . وكل واحد احتضنته مـن طرفها . ونظرت سلوى اليه . فالان ، رأت وجهـه ، بوضوح . اذ يسقط ضوء النهار من الشباك ، عليه ، الان ، مباشرة . وجمد تسلوى ، على الكرسي ، من المفاجاة . يا الله . ما اجمل وجه هذا الطفل !! يا رب . ما احلاه . ما احلاه !! تقاطيع وجهه ، كم هي منسجمة !! كانها صياغة صائغ ماهر . جلت قدرة الصائغ الاكبر .. بجبينه العريض ، وشعره الاسود الفاحم ، وانفه الرقيق ، وعينيه .. سبحانك يا صاحب الملكوت علـى عرشك . كيف تخلق العيون الحلوة لاطفال التلة السوداء !! ما اصفى عينيه ، وما اكبرهما ، وتضيع عند النظر اليهما ، هموم الخليقة ، والارض ، ولا يخطر بالبال ، غير صفاء السماء ، وان الملائكة يطيرون فـي ممالكها الرحبة الالهية ، فرحا ومحبة .

هتفت سلوى ، عندما وقعت عيناها على وجـه الطفل المريض ، بدون وعـي :

ـ يا الله . ما احلاه !!

ولم تجد نفسها ، الا وهي راكعة امام الفراش على ركبتيها . وقـد تناولت الطفل بين ذراعيها . وضمته الى صدرها . آه .. وها هي تقبله على خديه الشاحبين . يا الله .. وعشرون دمعة مرة ، تنساب متلاحقة ، من عينيها الحلوتين ، على خديها .

قالت وهي تتعجب من خلال دموعها : انها لم تشاهد ، طيلة حياتها ، طفلا ، اجمل من هذا الطفل ، على الاطلاق .

وسألتهم وهي محتارة : ـ هل هذا ابنكم ؟!

فابتسم صالح سطل وهو حزين . وفهم : فهم ، انـه لا يمكن ان يخطر على بال الناس الاخرين ، ان بامكاننا نحن ، اهل التلة السوداء ، ان يولد لنا ، مثل هؤلاء الاطفال الحلوين . نعم . فهم . وفكـر بأسى : لكن الله يخلق جميع الاطفال مثلما يخلق الزهر على امه . وبعد ذلـك ، يأتي دور البشر . فاما انهم يسقون الزهور بالماء ، فتعيش . واما انهـا تذبل وتيبس .

وكان الولد ، يؤشر بيده ، ويتحرك . فبكت جدته ام طه . وقالت :

ـ حسن مسافر . فاعطوني اياه ، لاودعه .

فاعطوها اياه . وامه ، انفجرت بالعويل . فهمس صالح سطـل ، للانسة سلوى ، انه ، يجب علينا ان نخرج من هذا البيت . لان اهلـه مشغولون بابنهم المريض. فوافقت سلوى، وهي تمسح دموعها، ونهضت وخرجا الى الزقاق . بينما صالح سطل ، يحدثها ، ومن اجل ان يشغلها

ـ ان جدة الولد ام طه ، تتوقع موته ، وتريد ان تجهزه ، بالكفن والحنة ، حسب الاصول ، لذلك ، ارسلت ابنها ، ليبيع قنبازه الجوخ ، ويشتري بحقه الاغراض .

فلم تجبه سلوى . لانها كانت قد شردت بذهنها بعيدا . أن افكارا حزينة اخرى ، كانت تزدحم في خاطرها . فكرت هكذا : ان هذا وطني. وهؤلاء الاطفال ابناؤه . فلماذا ، انني لا ارى فيه ، شيئا ، يخصهم . سوى الكهريز المفتوح ، والعتمة في البوابات والشلل . وآباء ، لا يجدون الشغل . فيبيعون ملابسهم حتى يشتروا لاولادهم ، الكفن والحنة . ان هذه الحارة ، وطني . وشاهدت فيها اليوم ، اجمل طفل وقعت عليه عيناي ، طول حياتي . لكن ، اين الشمس ؟ لتشرق عليها . اين هي ؟ هذا وطني . لكن ، لا تشرق عليه الشمس ابدا . ينام ويستيقظ ، في الظلام . في الظلام .

ظلت تفكر بأسى :

هذا وطني . نعم . لكن ، كأني فيه غريبة .

وهي تخرج مع المختار من بيت ، وتدخل الى بيت : لماذا انني درست في الجامعة ، ست سنين ، لماذا ؟اذا انا لا اقدر ان افعل شيئا ، لهؤلاء الاطفال ؟ ثم وجدت نفسها ، تبكي ، مرة اخرى . هكذا ، بصمت ومرارة ، نزلت من عينيها ، دمعتان ، وهي تودع المختار ، بعد اخر زيارة. فزعل صالح سطل ، كثيرا ، وتأثر . وفكر : ان هذه بنت آدمية .

قال لها : يا خانم . انا تحت امرك ، فلا تزعلي . الله كريم .

وفجأة ، وجد نفسه ، يسألها ، من دون ان يفكر :

ـ يا خانم ، هل تريدين ان تتفرجي على الحديقة ؟

اجابته بحزن : ـ نعم اريد .

فقال لها : ـ طيب . تعالي معي .

ولم ذيل قنبازه بيده ، ومشى امامها . فتبعته ، حتى خرجا من الحارة ، مخلفين وراءهما ، الازقة والبيوت . فهناك امتدت ارض خالية ، تعانق سماء الله ، عند القرى البعيدة . مساء كئيب ، تصفر فيه الريح ، وضباب خفيف ، من انفاس الليل المقبل من بعيد ، يزحف على الكون . والصمت : كأنه صمت الضجر في اول يوم ولدت فيه الخليقة .

هتف صالح سطل ، وهو يشير بيده الى منخفض من الارض :

ـ تفضلي يا خانم . وتفرجي على الحديقة .

فمشت سلوى نحو المكان . وكانت اشباح اشجار قليلة ، عارية ، تطل عليها من قلب الضباب . ومشت . وخطت اول خطوة ، داخل المكان . صعدت مرتفعا من الارض ، واطلت منه . ونظرت . ثم جمدت في مكانها ، ولم تعد تتحرك . دقيقة .. دقيقتين .. ثلاث .. عشر . وهي لا تتحرك . كأن قدرة الهية ، غرستها هناك ، في لحظة واحدة ، تعادل عمر السنين الطويلة ، جذع شجرة هرمة . غطست رجلاها في الطين البارد ، مثلما تغوص الجذور في بطن الارض . فتلك اذن ، هي الحديقة !!

قال صالح سطل :

ـ نعم ، هذه هي حديقتنا ، وفيها ، كما تطلبين ، الحشيش والزهر والشجر .

فنزلت سلوى الى الجبانة . وقعدت على احد القبور . وفكرت ، مرة اخرى ، بالوطن : ان هذا هو وطني ، اذن . في هذه الجبانة . وطن الموت والقبور . لا وطن الشجر والزهر والشمس والاطفال الفرحين ، يلعبون في الحدائق الخضراء . وبكت كثيرا . بكت هذه المرة ، على الوطن كله .

والمختار ، ايضا ، احب ان يبكي معها .

قعد على الارض ، واسند ظهره الى حجر احد القبور ، ونظر الى السماء ، وهو تعيس . وحكى لها ، عن ابنه محمد علي . كيف انهم اخذوه الى الحبس . طويل واهبل . واذا تقاتل مع الشرطة ، فانه يهجم عليهم مثل الثور الفلتان . صحيح . نعم ، صحيح . لكن ، لا يوجد مثله ولد طيب ، على ظهر الكرة الارضية . اذا مرضت امه ، يبيع قميصه ـ والله العظيم ـ ليشتري لها بحقه الدواء . وعندما قتل الشرطة ، من ثلاث سنين ، احد رفاقه في المعمل ، اثناء المظاهرات ، بالرصاص . يا لطيف ! فانه بقي ، اكثر من شهرين ، وهو يذهب ، كل يوم الى الجبانة ، ويقعد قدام قبره ، ويبكي عليه . كأنه اخوه ومات . وانه ، الان ، ينام في الحبس . طيب . ينام . ما عليه شيء . الحبس على كل حال ، احسن من بيتنا بكثير .

ظل المختار ، هكذا ، مقدار ساعة من الزمن ، يحكي لسلوى ، عن ابنه محمد علي . حتى اتى رجل ، ومعه امرأتان . دخلوا الى المقبرة ، مع قدوم المساء ، وسلم الرجل ، عندما مروا : ان السلام عليكم . ومشى بالحمل الذي بين ذراعيه . واقبلت وراءه ، من بين الاثنتين ، امرأة عجوز . وجهها مكشوف ، وتسحب رجليها خلفها سحبا . فعرفتها سلوى . هتفت وهي تنهض مذعورة :

ـ هذه ام طه . فهل .. هل ..؟

فقال لها ، صالح سطل :

ـ نعم يا خانم . فذلك الرجل هو ابوه : طه نجار . ويحمله بين ذراعيه . ومعه زوجته وامه . وقد جاءوا جميعا ، ليدفنوا ابنهم حسن. احلى طفل ، وقع عليه نظرك في هذه الدنيا ، طول حياتك . تعالي ، في الربيع الاتي ، وانظري ، كيف ينبت الزهر ، فوق قبره ، هكذا ، بمشيئة الله ، ومن دون ان يزرعه من الخلق ، احد .

وكان المطر ، ينزل قليلا . ثم ، غزيرا .. غزيرا . وصالح سطل يحكي لسلوى ، في طريق العودة الى باب قنسرين : انه الله . ومن اجل ان يسقي ، هناك ، للاطفال ، ارض الحديقة . (*)

حلب

اديب نحوي

(*) من مجموعة « حكايا للحزن » التي تصدر قريبا عن « دار الاداب » .

صدر حديثا :

الناس في بلادي

للشاعر صلاح عبد الصبور

طبعة جديدة من الديوان الاول لاحد زعماء مدرسة الشعر العربي الحديث واحد رواد النهضة الشعرية المعاصرة .

الثمن ٢٥٠ قرشا

منشورات دار الاداب